

السّلام والعدالة الاجتماعيّة في الإسلام

إدريس منغا
أستاذ مساعد في اللغة العربية
كلية اللغة العربية والدراسات الأدبية
الجامعة الإسلامية بالنيجر

مقدمة :

كتب على بني آدم أن يحيا ويعيش مكرما في جو يسوده السلم والاستقرار مستعينا في هذه الحياة بكل ما أتيح له من قوة عقلية وبدنية في الكسب المادي والمعنوي. وقد كان المرء في أول أمره، وكما هو معلوم، يسعى لتوفير حاجاته الضرورية طبقا لفطرته السليمة التي خلق عليها. فكان كل فرد يصيب يومئذ، نصيبه من نعم الحياة بما يتناسب ومقتضيات الحياة الطبيعية. وقد قامت المجتمعات الأولى على هذه السنة الطيبة حينما من الدهر، فساد فيها الأمن والاستقرار .

غير أن غريزة حب الاستثثار، سرعان ما تغلبت على شعور الإنسان، مع تعقد الحياة الاجتماعية، وبمرور الزمن، لما غشيه من ظلمة الجهل، وغياب الإيمان الصحيح في القلوب، فتأثرت علاقاته مع غيره من أفراد المجتمع تأثرا سلبيا، فكانت النتيجة أن كثرت الفتن فاشتدت الحياة على الناس .

وقد نشأ عن هذا الفراغ العقدي انقياد أعمى للنفس الأمارة بالسوء وللغريزة، مما أدى إلى أزمة أخلاقية، فاتخذ منطق القوة والمكر، في مجتمعات كثيرة، سندا شرعيا لاستحلال ما تشتهي إليه الأنفس. ومن هنا أصبحت القوة لا العقل، القانون المنظم

للحياة، والمصدر الذي يستوحيه كل فرد من أفراد المجتمع في معرفة مقدار ما يمكن أن يتمتع به من حقوق .

والقوة كما لاحظها الشيخ الجليل بديع الزمان سعيد النورسي، إذا ما نصبت نقطة استناد في حياة أي مجتمع، كان الاعتداء شعاره، وكان الصراع أو النزاع وسيلة إلى انتزاع الحقوق¹. لقد استخدمت القوة في الحياة الاجتماعية كثيرا .

أ — قديما :

1 — في الغرب : كان المجتمع الغربي مجتمعا متخلفا وقد ظل على هذه الحال قرونا طويلة. ففي العصور الوسطى على سبيل المثال، كان هذا المجتمع متسما بالجهل والفقر كما كان متسما بعقلية متخلفة، وكان الهوى يحكم سلوك أفرادها، فكان الضعيف فيه فريسة شرعية للقوي؛ وذلك لأن منطق القوة يجعل القوي دائما وأبدا على الحق².

2 — في الشرق : عرف العرب في جاهليتهم سلوكا مماثلا، حيث كان يأكل بعضهم بعضا بالإغارة والغزو لفساد القلوب؛ فقد كان الأب في المجتمع الجاهلي يتمتع بسلطة مطلقة بين أهله، إذ كان يملك عليهم الحياة والموت والبيع³. فكانت الذلة والمسكنة نصيب المستضعفين في هذه المجتمعات .

ب — حديثا :

إن الأزمة الثقافية والأخلاقية لم تقتصر على المجتمع البشري القديم، بل استمرت وبصورة مطردة لتطال مجتمعاتنا في العصر الحديث ذلك أن اللجوء إلى القوة وركوب هوى النفس، واللهث وراء المصالح المادية، أضحت سمة للمجتمع الحديث. فكان من الطبيعي أن يكثر الظلم فيه وتكثر الفتن. والظلم أشكال عدة، فقد يأخذ شكل تكتل جماعي ضد جماعة أخرى، أو فرد ضد جماعة، أو العكس .

مظاهر الظلم في المجتمع :

فمن مظاهر الظلم فكرة القومية بشكلها السلبي. وهي عند النورسي — قومية مشؤومة مضرة تنمو بابتلاع الآخرين وتدوم بعداوة من سواهم، فيولد المخاصمة والنزاع. إن فكرة القومية بشكلها السلبي كانت وما زالت سلاحا في يد الغزاة ذوي

النوايا الاستعمارية ضد المجتمعات الضعيفة الإيمان، لتحقيق أغراضهم بإثارة الفتن وإحداث التنافر بين أفراد المجتمع الواحد⁴.

" لقد ظهرت طوال التاريخ أضرار كثيرة نجمت عن القومية السلبية، نذكر منها : أن الأمويين خلطوا شيئاً من القومية في سياستهم، فأسخطوا العالم الإسلامي فضلاً عما ابتلوا ببلايا كثيرة من جراء الفتن الداخلية. وكذلك شعوب أوروبا، لما دعوا إلى العنصرية وأوغلوا فيها في هذا العصر نجم العداة التاريخي المليء بالحوادث المرعبة بين الفرنسيين والألمان، كما أظهرت الدمار رهيب الذي أحدثته الحرب العالمية، مبلغ الضرر الذي يلحقه هذا الفكر السلي للبشرية"⁵.

و قد وصف سعيد النورسي هذا النوع من الظلم الاجتماعي بأنه حماقة كبرى، كما نفى نفيًا قاطعاً أن يكون ذلك حمية وغيره، خلافاً للقومية التي يعدها إيجابية نابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية، وهي عنده، قومية قائمة على التعاون والتساند بين إخوة الأمة الواحدة. فمثل هذا الفكر القومي، على قوله، ينبغي أن يكون خادماً للإسلام، ويكون قلعة حصينة له وسوراً منيعاً حوله، دون أن يحل محل الإسلام أو بديلاً عنه، لأن الأخوة الناجمة عن هذا النوع من القومية تمثل واحدة من أنواع الأخوة التي يمنحها الإسلام⁶.

فإذا كانت القومية السلبية ضارة للحياة الاجتماعية لما فيها من معاداة جماعة عرقية على جماعة أخرى، فكذلك الأنانية؛ فإنها لا تقل خطورة عن القومية من حيث إنها إذا ما تمكنت في الواحد منا — على بيان الشيخ سعيد النورسي — أثارت فيه النفس الأمارة ونمت فيه نية القضاء على كل ما يقف دون تحقيق رغبته، بل وصل به الأمر أحياناً إلى درجة لا يرى فيها سوى القضاء على العالم من حوله وعلى الجنس البشري قاطبة، متى استطاع إلى ذلك سبيلاً⁷. فالأنانية من هذا القبيل ظلم لا شك في تأثيره على الحياة الجماعية سلباً. والظلم إنما ضلالة، وهذا ما أكده النورسي حين قال: " إن أهل الضلالة في هذا العصر قد امتطوا "أنا" فهو يجوب بهم في وديان الضلالة. فأهل الحق لا يستطيعون خدمة الحق إلا بترك "أنا" وحتى لو كانوا على حق وصواب في استعمالهم "أنا" فعليهم

تركه، لئلا يشبهوا أولئك، إذ يكونون موضع ظنهم إنهم مثلهم يعبدون النفس. لذا فإن عدم ترك "أنا" بحس للحق تجاه خدمة الحق" ⁸.

فالأنانية إذن بالنظر إلى ما سبق، نوع من الظلم الذي يقف به الفرد موقف العدا من الجماعة. وإلى جانب هاذين النوعين من الظلم، كانت النصرانية، ولاسيما مذهب الكاثوليك، أداة تحكم في يد رجال الدولة. وقد استغلوها للاستبداد بالشعب، و"كوسيلة لسحق أصحاب المهتم والحمية من العوام الذين كانوا يطلقون عليهم اسم (الفوضويين والدهمائي)، وقد باتت وسيلة لسحق المفكرين من دعاة الحرية الذين كانوا يتصدون لاستبداد الخواص ومظالمهم. بل قد عد ذلك المذهب هو السبب في سلب راحة الناس وبث الفوضى في الحياة الاجتماعية لسبب الثورات التي حدثت في بلاد الإفرنج طوال ما يقارب أربعمئة سنة، لذا هوجم ذلك المذهب باسم مذهب آخر للنصرانية لا باسم الإلحاد. ونما السخط والعداء عليه لدى طبقة العوام ولدى الفلاسفة" ⁹.

غاية رسالة الإسلام :

فمن خلال هذه النماذج من الأمثلة، يمكن أن نتلمس مدى الظلم الذي شهده البشر في حياتهم الاجتماعية من فجر الحياة إلى يومنا هذا. وقد يتساءل المرء من هنا إن كان من الممكن وضع نظام بديل يتحقق به للإنسان السلام والسعادة .

لقد تتابعت الرسائل السماوية منذ بداية الخلق لهداية البشر إلى سوي السبيل، وكان الإسلام — كما هو معلوم — آخر رسالة أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة لإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم لقوله سبحانه وتعالى في سورة إبراهيم: " ألر. كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور" ¹⁰. فالدين في جوهره ميزان تترن به الحياة وتستقيم، فينعم كل مخلوق بالسعادة والأمان. يقول الله جل جلاله في هذا الشأن : " لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط" ¹¹. فلكون الدين ذا أهداف إنسانية، ولأنه جعل الإنسان في بؤرة اهتمامه، رأى بعض العلماء أن الإسلام كنظام حياة هو البديل لما يوفره من عدالة اجتماعية، ولكونه " وحدة نظامية شاملة متكاملة لضروب الحياة المختلفة له سبله ومثله العليا وقوانينه وتشريعاته" ¹².

فقد أثبت التاريخ والاستقراء لحياة البشر أن الدين ضرورة لا غنى عنها، ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد، وتزكو نفسه، وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرتفع ويرقى¹³.

والدين الإسلامي دين مساواة وعدالة لا يفرق بين المرء وأخيه، بل جعل من العدالة الأس الرئيس لإنشاء المحبة بين الناس. فلا أفضلية لأحد على آخر إلا بالتقوى. يقول الله تبارك وتعالى: " إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"¹⁴. فلذا، يرى الشيخ الجليل سعيد النورسي أن العدالة في تدبير شؤون الناس والتحلي بالأخلاق الحميدة، أمران لا مناص منهما لممارسة سياسة إنسانية حكيمة بدلا من السياسية المدنية الحاضرة التي تضحي بالأكثرية في سبيل الأقلية، بل تضحي قلة قليلة من الظلمة بجمهور كبير من العوام في سبيل مقاصدها¹⁵. فهذه المدنية عنده، هي التي أطلقت الهوى والنوازع من عقابها، ليصبح فيها الإنسان خاضعا خضوعا تاما لغرائزه وهواه، بحيث أحل لنفسه جميع ما يهواه وجعل نفسه سيدا ظلما لا يتحكم فيه غير شهوته¹⁶.

النورسي والدعوة إلى الإسلام :

فبالنظر لهذه الحقيقة المرتبطة بالإنسان الذي يمثل بدوره حلقة هامة في الحياة الاجتماعية، ظل النورسي يدعو إلى الإسلام باعتباره نظاما كفيلا بتنظيم الحياة الاجتماعية بقيمه الإنسانية السامية التي لا يظلم معها الإنسان مهما كانت منزلته في المجتمع؛ لأن العدالة والإحسان من أهم أركان هذا الدين. يقول سبحانه وتعالى: " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى"¹⁷. يقول سعيد النورسي: " إن القرآن الكريم النازل رحمة للعالمين لا يقبل إلا طرازا من المدنية وهي — على قوله — المدنية التي تمنح السعادة للجميع أو الأكثرية؛ وذلك باتخاذ الحق نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة وجعل رضى الله سبحانه وتعالى، ونيل الفضائل غاية بدلا من المنفعة الشخصية، واتخاذ دستور التعاون أساسا في الحياة، بدلا من دستور الصراع"¹⁸. فالإسلام دين إنساني، ولقد تولد عن عقيدته حياة مدنية راقية، وينطوي الإسلام في ثناياه مقومات كفيلة بوضع حد لتجاوز النفس الأمارة، ودفع

الروح إلى معالي الأمور وإشباع مشاعرها السامية بسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية؛ لأن شأن الحق، على عبارة الشيخ سعيد النورسي، هو الاتفاق، وشأن الفضيلة هو التساند... وشأن دستور التعاون، هو إغاثة كل للآخر، وشأن الدين هو الأخوة والتكاتف، وشأن إلجام النفس وكبح جماحها، وإطلاق الروح وحثها، هو سعادة الدارين¹⁹. فمفتاح السعادة إذن، في التمسك بالقيم الإسلامية. فقد اتسمت الحياة الاجتماعية بالأمان والاستقرار بفضل روح الإسلام التي تشبع بها من قبلنا من الصحابة والسلف الصالح. فالصحابة أقاموا المجتمع الإسلامي على القيم الإسلامية.

نماذج من العدالة في الإسلام :

فأبو بكر رضي الله عنه، في خطبته الأولى، بعد توليه الخلافة، يقول : " أيها الناس إني قد وليت عليكم وليست بخيركم، فإن رأيتوني على حق فأعينوني، وإن رأيتوني على باطل فسدوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إن أفواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه"²⁰. ويقول عمر رضي الله عنه لقائده في حرب الفرس : " إذا لاعب أحدكم — بمعنى إذا لاغى — أحد الفرس فظن أنه يعطيه عهد أمان فأنفذه، فالجندي المسلم لم يعط عهداً في الحقيقة، ولكن الجندي الفارسي ظن أنه يعطيه عهد أمان، فكان على هذا القائد المسلم أن يفي بهذا الوعد"²¹.

وهذا علي كرم الله وجهه، تضيع منه درعه، فيفتقدها، فيجدها عند يهودي، فيقول له: " هذه درعي"، فينفي اليهودي أنها درع علي كرم الله وجهه، فيأخذ إلى قاضيه (شريح)²² ويعرض عليه القضية حتى إذا وقف الخصمان بين يدي القاضي يقول علي كرم الله وجهه : الدرع درعي ولم أبع ولم أهب — فيلتفت القاضي إلى اليهودي يقول : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ فيقول اليهودي : الدرع درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب. فيلتفت القاضي إلى أمير المؤمنين فيقول : يا أمير المؤمنين هل من بينة... هل كل بينة على أن هذه درعك ؟ فيجيب علي أمير المؤمنين قائلاً : صدق شريح ! ما لي بينة، فيقضي القاضي بالدرع لليهودي وهو يعلم يقينا أن الدرع درع أمير المؤمنين. لكن القاضي لا يحكم بعلمه، لا بد من بينة كما تقتضيه الشريعة الإسلامية²³.

وهذا أيضا أبو عبيدة في حرب الشام، كان قد فتح شمال الشام وأخذ الجزية من أهلها، ثم سمع أن هرقل يجهز له جيشا عظيما، فرد الجزية إلى أهلها وقال لهم : أخذنا منكم الجزية بشرط أن نحميكم وقد سمعتم ما يجهز لنا، وإنا لا نقدر على حمايتكم، بل نحن على شرط إن نصرنا الله عليهم²⁴.

فهذه بعض من نماذج العدالة التي شهدتها التاريخ على حكام المسلمين، وقد ساد الأمن والسلام يومئذ المجتمع الإسلامي بفضلها، فعاش الناس شاعرين بوفاء الدولة بحقوقهم طبقا لشرع الله سبحانه وتعالى .

إن العدالة القرآنية المحضة، لا تهدر دم بريء ولا تزهد حياة حتى لو كان في ذلك حياة البشرية جمعاء. فلا يحق في الإسلام؛ لأي مظلوم كان، ولأي مفكر كان، أن يشكو من الدين الحمدي، والشريعة الإسلامية؛ لأن هذا الدين لا يسخطهم بل يحميهم، في حين أن المذهب الكاثوليك سبب ثورات داخلية دامت أربعمئة سنة، فالإسلام حصن حصين للعوام أكثر منه للنخوص، إذ لا يجعل الخواص مستبدين على العوام، بل يجعلهم خادمين لهم — من جهة — وذلك بوجوب الزكاة وتحريم الربا²⁵.

حق الفرد في الإسلام :

إن حق الفرد في المجتمع الإسلامي محفوظ. فخلافا لما هو معروف في أنظمة الغرب الديمقراطية، حيث ييطل حق الفرد لصالح الأغلبية، فحق الإنسان في الإسلام يدخل ضمن العناية الإلهية ورحمته، فلا ينظر إلى كونه صغيرا أو كبيرا، لذا قال سعيد النورسي بأن حق الفرد لا يفدى بالصغير لأجل الكبير، ولا بحياة فرد وحقه لأجل سلامة جماعة والحفاظ عليها، إن لم يكن له رضى في الأمر، إلا إذا كانت التضحية برضاه ورغبة منه²⁶.

فالخلاف التاريخي الذي نشأ بين الحسن والحسين من جهة، والدولة الأموية من جهة أخرى كان بسبب اعتماد الأمويين في الحكم على العنصر العربي دون غيرهم من المسلمين، وقد قاوم الحسن والحسين هذه التفرقة العنصرية على أساس الجنس لتناقضها مع المنهج الإسلامي. ولذا أخذت مقاومتهم طابع الصراع بين العدالة والظلم. يقول سعيد النورسي : " إن الأسس المتبعة في القومية والعنصرية أسس ظالمة لا تتبع العدالة ولا

توافق الحق، إذ لا تسير تلك الأسس على وفق العدالة، لأن الحكم العنصري يفضل من هم بنو جنسه على غيرهم، فأني له أن يبلغ العدالة ! لا فرق بين عبد حبشي وسيد قرشي إذا أسلم. فلا يمكن إقامة رابطة قوية في ضوء هذا الأمر الجازم. إذ لا تكون هناك عدالة قط، وإنما تهدر الحقوق ويضيع الإنصاف"²⁷.

ويقول في موضع آخر : " إن لم تكن تصرفات المؤمن وحركاته وفق الدساتير السامية التي وضعها الحديث الشريف : " الحب في الله والبغض في الله " والاحتكام إلى أمر الله في الأمور كلها، فالنفاق والشقاق يسودان ... نعم، إن الذين لا يستهدي بتلك الدساتير يكون مقترفا ظلما في الوقت الذي يروم العدالة"²⁸.

حق المرأة والرجل :

إن الرجل والمرأة هما الركبان اللذان يقوم عليهم المجتمع. ولقد أعطى الله جل جلاله، لكل منهما حقه. فلو رجعنا إلى قوله : " فللذكر مثل حظ الأنثيين "²⁹ لوجدنا فيه "محض" العدالة وعين الرحمة في الوقت نفسه، نعم، إن ذلك الحكم عدالة؛ لأن الرجل الذي ينكح امرأة، يتكفل بنفقتها كما في الأكثرية المطلقة. أما المرأة، فهي تتزوج الرجل وتذهب إليه، وتحمل نفقتها عليه، فتلافي نقصها في الإرث. ثم إن الحكم القرآني رحمة؛ لأن تلك البنت الضعيفة محتاجة كثيرا إلى شفقة والدها وعطفه عليها، وإلى رحمة أخيها ورأفته بها، فهي تجد — حسب الحكم القرآني — تلك الشفة عليها من والدها وعطفه دون أن يكدرها حذر، إذ ينظر إليها والدها نظرة من لا يخشى منها ضررا، ولا يقول بأنها ستكون سببا في انتقال نصف ثروته إلى الأجنبي والأعيار. فلا يشوب تلك الشفة والعطف الأبوي الحذر والقلق"³⁰.

ولذا، يرى سعيد النورسي أن الشريعة الإسلامية تربي روح المسلم على الشفقة والرأفة، وما المشاكل وحالات عدم الاستقرار في المجتمع إلا نتيجة للظلم وعدم الالتزام بالقيم الإسلامية التي حددتها لنا الشريعة الإسلامية. يقول : " إن سبب نزول المصائب العامة هو خطأ الأكثرية من الناس، وأن الحرب العالمية التي شهدتها البشرية إنما هي لطمة قوية على البشرية لكثرة الظلم، ولا سبيل إلى حياة اجتماعية سعيدة وآمنة في نظره إلا

بالتمسك بالدستور الرباني العادل الذي ينظر إلى الفرد والجماعة والشخص والنوع نظرة واحدة³¹.

الخلاصة :

لقد تبين لنا مما سبق في هذا العرض، مدى تمسك الصحابة رضوان الله عليهم بالقيم الإسلامية، وكيف أن العدالة التي تميز بها الحكم في عصرهم، كانت سبب استقرار وسلام اجتماعيين. فالعدالة الإسلامية — كما رأيناها — عدالة غير مختصة لفئة دون أخرى، بل هي عدالة تتجاوز جميع الاعتبارات مادية كانت أو معنوية. وعليه، اتسمت الحياة الاجتماعية في عهد الصحابة بالأمن والاستقرار؛ ولذا رأى الشيخ الجليل سعيد النورسي ضرورة الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة كي نقذ مجتمعاتنا من المصائب، ونعيش في سلام، فإنه لم ير نظاماً أكثر ضماناً للإنسان العدالة من الإسلام.

الهوامش

- 1 - الكلمات ، ج 1 ، ص 145.
- 2 - ينظر : تاريخ الأدب لأحمد الزيات ، ط 1413هـ / 1993م ، دار المعارف ، ص 378.
- 3 - المرجع نفسه ، ص 12.
- 4 - ينظر : المكتوبات ، ص 414.
- 5 - المرجع نفسه ، ص 41.
- 6 - ينظر : المرجع نفسه، ص 415.
- 7 - المرجع نفسه ، ص 608.
- 8 - المكتوبات ، ص 549.
- 9 - المرجع نفسه ، ص 561-562.
- 10 - الآية : 1.
- 11 - سورة الحديد ، الآية : 25.
- 12 - خطوط رئيسية في الاقتصاد الإسلامي ، محمود أبو السعود ، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، ص 9.
- 13 - الإيمان و الحياة ، يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ، ص 7.
- 14 - سورة الحجرات ، الآية : 13.
- 15 - ينظر : الكلمات ، ص 856.

- 16 - ينظر : الكلمات ، ص856.
- 17 - سورة النحل ، الآية : 90.
- 18 - الكلمات ، ص1.
- 19 - المرجع نفسه ص145.
- 20 - البداية و النهاية لابن كثير ، ج1، ص201.
- 21 - ينظر : الإسلام لمحمد قطب ، مكتبة السنة ، ص72.
- 22 - هو ابن الحارث قيس الكندي ، قاضي الكوفة .
- 23 - المرجع نفسه ، ص71.
- 24 - الإسلام لمحمد قطب ، ص71.
- 25 - ينظر : المکتوبات ، ص562.
- 26 - ينظر : المرجع نفسه ، ص67.
- 27 - المکتوبات ، ص68.
- 28 - المرجع نفسه ، ص348.
- 29 - سورة النساء ، الآية : 176.
- 30 - المرجع نفسه ، ص48.
- 31 - ينظر : الكلمات ، ص859.